ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

دويلات المغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر
حدود سياسية رخوة، لهوية ثقافية منفتحة

د. عادل النفاتي
باحث في التاريخ الثقافي المغاربي والمتوسطي
مخبر التاريخ الاقتصادي للمتوسط ومجتمعاته
جامعة تونس – الجمهورية التونسية

مُلَخّص
شكّل زمن العصر الوسيط المتأخر مرحلة دقيقة في رسم ملامح تشكل الكيانات السياسية في منطقة بلاد المغرب، بالتساوق مع ظهور تحوّلات كبرى كان قد شهدها العالم المتوسطي شرقا وغربا، وأيضًا بسبب تحوّل الانتباه الأوروبي إلى المسالك البحرية الجديدة المحاذية للسواحل الغربية لبلاد المغرب والواصلة مع العالم الجديد. فضمن هذا الإطار الزماني اخذ مفهوم الحدود السياسية يتبلور في الذهنية المغاربية ثم ليتطور شيئا فشيئا مع الحضور العثماني، لتنزع كل مركزة سياسية إلى وضع حدود معلومة تتحرك فيها الجماعة البشرية المعلنة انتسابها إلى ذلك المجال كمكون أساسي لهويتها. غير انه من الجدير الإشارة إلى ان تلك الحدود ظلت رخوة ومتبدلة إلى حين قدوم المستعمر الأوروبي الذي سعى إلى ضبطها ومراقبة الأماكن الحدودية. ومع تطوّر الوعي الحدودي لدى ساكنة المغارب في الفترة المذكورة فإن ذلك لم يمنع استمرار حركة التنقل بين جهاته للأفراد والقبائل والأفكار ما فتح الباب امام استمرار تبادل العطاءات الثقافية بين مختلف أقاليمه، كما لم تمنع الصحراء من نشوء عمليات تثاقف عميقة بين الفضائين المغاربي وإفريقيا جنوب الصحراء والذي لامس عدة مجالات لاسيما منها الموسيقى الشعبية والطقوس الروحية.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٢٠ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:
العهد الحفصي؛ بلاد المغرب؛ فاس؛ جامع الزيتونة؛ تونس

معرِّف الوثيقة الرقمي:
10.21608/KAN.2023.340719

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عادل النفاتي. "دويلات المغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر: حدود سياسية رخوة، لهوية ثقافية منفتحة".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٠٦ – ١٢٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: adel.nafeti@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةُ

شكّلت الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن السادس عشر مفصلة زمنية مهمة في تاريخ تشكّل حدود دويلات المغارب، بعلاقة مباشرة بالتحوّلات المحلية التي شهدتها المنطقة من تقلبات سياسية على إثر تفكك الدولة الموحدية وتطلّع السلالات الحاكمة الناسلة منها إلى استعادة توحيد المنطقة تحت رايتها. ولم تكن بلاد المغرب بمعزل عن التقلبات التي شهد العالم المتوسطي في حوضيه الشرقي والغربي، بعد انقضاء مرحلة الصراع المباشر بين ضفتي المتوسط في إطار ما عرف بالحروب الصليبية وفتح الباب أمام ازدهار تجاري مؤقت للجمهوريات الإيطالية، قبل أن تظهر مع نهاية القرن الخامس عشر قوى متنافسة لأجل السيطرة على المتوسط، ثم بداية الانصراف الإيبيري لاستكشاف المسالك البحرية الجديدة المحاذية للسواحل الغربية لبلاد المغرب وإفريقيا، والواصلة مع العالم الجديد، موطن الثروات والزخم السكاني.

انشغل كتّاب التاريخ بتضمين نصوصهم مجمل تفاصيل تلك الأحداث والوقوف عند سرد أخبار المركزات السياسية التي تشكّلت في مجال المغارب منذ العصر الوسيط المتأخر إلى منتصف القرن السادس عشر، كمرحلة تاريخية لم تنقطع فيها الصراعات الحدودية بين دويلات المغارب، إلى حين انقضائها وحلول قوى وافدة عجّلت بإنهاء وجودها، راسمة لحدود جديدة وفق مرجعيات مغايرة للمرجعيات الوسيطية، لتكون النواتات الأولى لحدود الدول المغاربية راهنا. لقد دقق ابن خلدون في مؤلفيه «المقدمة»، «وتاريخ العبر»، ومن بعده الحسن الوزان الفاسي صاحب «وصف إفريقيا» ثم مارمول كاربخال محرّر مدونته التاريخية والجغرافية «إفريقيا» في سرد أخبار دويلات المغارب وتنافسها فيما بينها لأجل توسيع حدودها أو اجتهادها في الصمود لأجل صدّ القوى الغازية والمنافسة.

لم يثن حديث الحدود المؤرخين والرحّالة من تخصيص صفحات مطولة للحديث عن الهوّية الثقافية المغاربية، مع تشديد على نقاط التشابه والتقارب في شتى الخصوصيات الحضارية التي ميزت شعوب المنطقة: كالأكل واللباس والمعمار وأدوات الزينة وعادات الزواج وطقوس "العبور إلى العالم الآخر" وغيرها. فقد كان انتشار الثقافات وتمدّدها في المغارب وعبر التاريخ أقوى من جدران حدود سياسية رخوة آخذة في التشكّل، إذ لم تحد تلك الحواجز حركة القبائل والتجار والسفراء والمتصوفة والأفكار والتمثلات من الانتقال والارتحال بين المملكات المختلفة.

كما لم تمنع الصحراء بقساوتها من ظهور مسالك برية وجادات تخترق جبال الأطلس لتضمن التواصل بين بمجالات المغارب وبلاد السودان، ويؤمها التجّار والمهاجرون والسفراء والبعوث، لتقاسم بضائعهم وعطاءاتهم الثقافية. فقد أشار الحسن الوزان الفاسي إلى حيوية تلك المسالك التجارية، محددًا أبرز محطاتها ومواعيد خروج القوافل والمخاطر التي قد تتهدد مرتاديها. وأشار أيضًا إلى تسرّب المؤثر الإفريقي في عدة مناحي من الثقافة المغاربية ومنها الموسيقى الروحية للسود من خلال تزايد حضور الأفارقة أو جماعة كناوة ودمجهم لتمثلاتهم الطقسية الإفريقية ضمن طقوس متصوفة المغارب كالرقص والغناء واستخدام الآلات الوترية والنفخية والايقاعية.

وأمام هده المتغيّرات المحورية التي شهدتها بلاد المغرب والمنبئة بحدوث تحوّلات جذرية في مستوى الذهنيات والمشاهد السياسية والثقافية، فقد رمنا البحث في الإشكاليات التالية: ما هو أثر التحوّلات السياسية في ترسيم الحدود بين دويلات المغارب في نهاية العصر الوسيط؟ وكيف بدأ المشهد الثقافي المغاربي في عين وذهن الضابط الإسباني مارمول كاربخال؟ وكيف تمكن التراث الثقافي الإفريقي جنوب الصحراء من الولوج إلى المشهد الثقافي المغاربي برغم صرامة المؤسسات الفقهية في حفظ "الثقافة النقية"؟

أولاً: الحدود السياسية لدويلات المغرب ودور المحلة والأعيان في فرض سلطان المخزن

استندت الحدود السياسية الفاصلة بين الدول والممالك عبر التاريخ إلى استخدام الحواجز التضاريسية كعلامات ظاهرة لإعلان نهاية مجال دولة

ما وبداية حدود دولة أخرى. فقد تكون تلك العلامات في شكل أنهار، أو جبال، أو صحاري، أو بحار وغيرها. وقد تكون أيضًا ذات طبيعة ثقافية تتجسد في مجمل القيم والتمثلات واللغة والأذواق المشتركة، التي تُكسب الجماعة هوية ثقافية مخصوصة تمايزها عن الهويات الثقافية المجاورة، وتخلق بين أفرادها شعورًا بالانتساب إليها. وكما ترسم الحدود على الخرائط فإنها ترتسم أيضًا في أذهان ساكنتها وحكامها، للفصل بين المجالات الأليفة والغريبة، ولتتركز ضمن حيزها سلطة مستقلة بذاتها قادرة على فرض نسقها وكسب ولاء أتباعها.

لتناول طبيعة الحدود السياسية بين دويلات مجالات المغارب في العصر الوسيط المتأخر، يدعونا هذا الأمر إلى النظر في استخدام تلك العبارة ومرادفاتها في التراث الفكري والأدبي والجغرافي العربي مشرق ومغربا(١)، حيث لم يقتصر ذلك الرصيد المعرفي الضخم على استخدام كلمة الحدود، بل أوجد مرادفات أخرى متصلة بالطابع الاحترازي والتحصيني أو الهجومي مع الأطراف المعادية لمراكز الحكم. ومن تلك المرادفات نجد: الثغور والرباطات والتخوم والنواحي والعواصم. ولأن المجال لا يسمح بالنظر في الكتابات المختلفة التي تناولت مسألة الحدود وخصوصا المؤلفات الجغرافية العربية والإسلامية والتي اختصت بما عرف ب«أدب المسالك والممالك » وكانت قد أوردت تفاصيل الأقاليم المكونة لخريطة العالم الإسلامي والحدود التي تفصلها عن بقية العوالم الأخرى،- فكانت مناسبة لاستعراض جملة المفاهيم واختلافاتها وفق طبيعة الشعوب المتاخمة لنواحي المسلمين - ، غير أنه من الجدير التنويه بالاستخدام المميز لابن خلدون الذي يستعمل ذات المفردات (الثغور والحدود والأقاليم) لا فقط للفصل بين المسلمين وغير المسلمين وإنما للفصل أيضًا بين أقاليم الدولة الحفصية ذاتها وهي: إفريقية أو "عمالة السلطان"، والممالك الغربية أي بجاية وقسنطينة أو بين المركزات السياسية المغاربية الثلاثة التي زامن حكمها(٢).

١/١-حدود إفريقية في العهد الحفصي، بين التمدّد والانحسار

ظل اسم إفريقية في المصادر السابقة للقرن السادس عشر يحيل باستمرار على واقع جغرافي متغيّر، فهو يتقلص أحيانا لكي يتطابق مع منطقة جغرافية ضيقة – تعيدنا إلى الزمن القرطاجي في آخر مراحله – تتحصر في القسم الشمالي من البلاد التونسية الحالية والذي يتداول في الذاكرة الجماعية تحت مسمى «فريقا» والموسومة بالخير والخصب. وينفسح أحيانا أخرى ليستوعب كامل الفضاء المغاربي، وربما يمتد إلى أبعد منها باحتوائه لأجزاء ترابية خارجة عنها، كالأندلس أو صقلية(٣). ويبدو أن جدلية الاتساع والانحسار لم تكن حكرا على دولة دون أخرى أو فترة زمنية محددة، بل هي ظاهرة تاريخية مغاربية تمتد جذورها إلى العصور القديمة(٤). ونظرا لطول المدة الزمنية التي صاغت ثنائية التمدّد والانحسار للدول والكيانات السياسية التي اتخذت من شمال إفريقيا نقطة ارتكازها، فإننا سنقصر جهدنا على العهد الوسيط المتأخر الذي فرض فيه الحفصيون سلطانهم على مجال إفريقية في أبعاده الواسعة والضيقة. حيث وصل تأثيرهم في القرن الثالث عشر حتى الأندلس، وفرضوا هيمنتهم في فترات أخرى على الزيانيين ملوك تلمسان، على أيام ابي زكرياء الحفصي (١٢٠٣ - ١٢٤٩). وبلغ في نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر مدينة فاس على أيام أبي فارس عبد العزيز (١٣٦١ - ١٤٣٤). لكن ذلك التمدّد تعرض في فترات أخرى إلى التقلص وحتى الانقراض ظرفيا مثلما حدث زمن الامتداد المريني خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر(٥).

لقد أربك عدم استقرار حدود الدولة الحفصية كتّاب تاريخ بلاد المغرب، واختلفوا في تحديد حدودها باختلاف سياقات الكتابة وأزمنتها. فقد مال ابن خلدون إلى تحديد مجال إفريقية في زمنه بذاك المجال الممتد من " بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسنطينة في الشرق منها وفي جنوبي هذه البلاد ومرتفعا إلى جنوب المغرب الأوسط بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدته بسكرة تحت جبل أوراس المتصل بدرن...والقطعة الجوفية من جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والأربس، وعلى ساحل البحر بلد بونة، وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد إفريقية، فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت

جبل درن بلاد الجريد وتوزر وقفصة ونفزاوة وفيما بينهما وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلاد طرابلس.[٦]» . أما الحسن الوزان الفاسي الذي زار تونس في العقد الثاني من القرن السادس عشر، فإنه آثر الحديث عن أقاليم مملكة تونس الأربعة وهي: بجاية[٧] وقسنطينة وطرابلس الغرب والزاب، ثم استدرك عند حديثه عن الحدود الفعلية لمملكة تونس زمن حضوره في المنطقة بقوله: "وكان إقليم بجاية موضوع نزاع مستمر، يتبع تارة سلطة ملك تونس، وسلطة ملك تلمسان أخرى، إلى أن أصبح في أيامنا هذه مملكة مستقلة استولى على عاصمتها الكونت بيير نافارو اسم ملك اسبانيا فرديناند[٨]».

فمن خلال هذا البسط التاريخي الموجز، نستنتج أن اسم إفريقية لم يكن حتى القرن السادس عشر يحيل على واقع جغرافي وسياسي محدّد وثابت، بل أن مدلوله في النصوص متطوّر بتغير السياق التاريخي وموازين القوى في المنطقة، رغم اجتهاد السلاطين الحفصيين بكل السبل للحفاظ على مجال دولتهم الذي خلّفه الأجداد. عبر التحالف تارة مع القراصنة الأتراك الذين أضحوا يمتلكون الأسلحة النارية والمدافع لمواجهة التمدّد الإسباني على السواحل الحفصية، وفي أحيانًا أخرى اللجوء إلى الإسبان لإبعاد خطر تأسيس ولاية عثمانية على الثغور الغربية والجنوبية. ويضطرون في أوقات أخرى إلى التحالف مع المجموعات القبلية، كما فعل السلطان الحسن في مواجهة حملة خير الدين سنة ١٥٣٤.

انقلبت موازين القوى كليًا مع أواسط منتصف القرن السادس عشر لفائدة الأتراك الذين اقتطعوا الجناح الغربي من إفريقية الحفصية وألحقوه بإيالة الجزائر، وخصوا إيالة طرابلس بالقسم الشرقي، ولم يبق للمخزن الحفصي سوى فضاء محدود قدّرته إحدى المراسلات الإسبانية بمسيرة يوم من العاصمة تونس، قبل أن يتم إزاحتهم نهائيًا من الحكم سنة ١٥٧٤[٩]. ويبدأ الشروع في ترسيم الحدود بين إيالتي تونس والجزائر في الثلث الأول من القرن السابع عشر خصوصًا بالأقاليم الشمالية –على اعتبار أنها أكثر الأقاليم الآهلة بالسكان

– وظلت الحدود الجنوبية غير مضبوطة إلى حين تدخل السلط الاستعمارية في بداية القرن العشرين لتتكفل بترسيم الحدود الصحراوية بين البلدين وبين الجزائر وبقية البلدان الإفريقية الصحراوية.

٢/١–نهر ملوية علامة حدودية مرجعية بين المغربين الأوسط والأقصى

شكّل نهر ملوية علامة تضاريسية بارزة للعيان رسّخت الحدود المجالية بين المركزات السياسية التي تكونت في المغربين الأوسط والأقصى في كل العصور والأزمنة. فكما كان فاصلا بين الموريطانتين القيصرية والطنجية خلال الفترة الرومانية، فقد سار الزيانيون (١٢٣٥ – ١٥٥٤) والمرينيون (١٢٤٤ – ١٤٦٥) على عادتهم، واتخذوه علامة حدودية مرجعية خصوصا في أيام السلم، بعد أن يتم تجاوزه من قبل هذا الطرف أو ذاك في أيام الحرب.

ونظرًا لأهميته الجغرافية والاستراتيجية فقد انتبه الحسن الوزان الفاسي إلى وصف نهر ملوية كالآتي بيانه، هو: « نهر كبير ينبع من الأطلس في ناحية الحوز... يجتاز أولاً بعض السهول الوعرة اليابسة ليصل إلى سهل أكثر وعورة ويبسا بين مفازات أنكاد وكرط، ويمر في سفح جبل بني يزناسن ويدخل في البحر المتوسط غير بعيد عن مدينة غساسة.[١٠]». كما لم يغب عن ذهن الفاسي وهو يمر بتلمسان وصف مجال الدولة الزيانية وتحديده حيث:« يحد مملكة تلمسان واد زا ونهر ملوية غربًا، والواد الكبير وصحراء نوميديا جنوبًا... إلى أن انتزعه منهم (بنو عبد الواد) أمير ذو شأن كبير يسمى يغمراسن بن زيان وورثه عنه أحفاده.... وقد استقر الملك في بني زيّان ثلاثمائة سنة.[١١]» . لم تكن حدود الدّولة الزيانية كبقية الدويلات المغاربية ثابتة ومستقرّة، فهي بدورها متغيرّة تبعًا للظروف السياسية والأحداث الخارجية وخصوصًا مدى تطوّرها في الجارتين الشرقية والغربية، فقد كانت بمثابة الدولة الحاجز Etat- tampon والأضعف بين الحفصيين والمرينيين.

كانت الدولة الزيانية في أغلب الأوقات ضعيفة ومنهكة، بسبب افتقادها على خلاف جيرانها لمجال حضري – باستثناء تلمسان – كثيف يشد أزرها في

أوقات الأزمات، حيث وقع احتلال حاضرة حكمهم في أكثر من عشرين مناسبة[١٢]. فكانت سلطتها لا تتجاوز في بعض عهودها أسوار تلمسان، مثلما حصل أيام الحصار المريني الأول والذي امتد من ١٢٩٩ إلى١٣٠٧م، ومهاجمتها في مرة ثانية من قبل أبي الحسن المريني سنة ١٣٣٧، وتمكنه من القضاء على السلطة الزيانية. حينها أصبح مجال مملكة تلمسان خاضعًا بأكمله للدولة المرينية إلى غاية إحيائها من جديد على يد أبي حمو موسى الثاني سنة ١٣٥٩، والذي نجح في الحفاظ على سلطانه إلى حدود سنة ١٣٨٩ [١٣]. ثم ستعرف الدولة الزيانية بعد ذلك استقرارًا هشا لحدودها المعروفة إلى حين مقدم الأتراك، على أن تتخلل ذلك هجمات حفصية في عهدي أبي فارس عبد العزيز سنة ١٤٢٦ وأبي عمرو عثمان سنة ١٤٦٢، ما فرض على الزيانيين وقتها اللجوء إلى التفاوض والقبول بالخضوع.

ثم سيتغير المشهد الجيو-سياسي بصفة جذرية بمقدم الإسبان في إطار حركتهم لتعقب الأندلسيين بعد سقوط إمارة غرناطة ومواصلتهم لما عرف بحروب الاسترداد، ولتدعيم موقفهم بعد ذلك في المتوسط في مواجهة إمبراطورية سليمان القانوني. فسارعوا منذ مفتتح القرن السادس عشر بمهاجمة موانئ مملكة تلمسان واحتلال مينائي وهران والمرسى الكبير[١٤]، وسعوا إلى تركيز حاميات وحصون ثابتة. ولقد استتبع ذلك الحدث حلول القراصنة الموالون للدولة العثمانية. عندها أبانت الظرفية الجديدة عدم قدرة المركزات السياسية الوسيطية الناسلة من رحم العصبيات القبلية غير قادرة على مواكبة متغيرات الحداثة، فانصاعوا إلى الدولة العثمانية وزالت الدولة الزيانية سنة ١٥٥٤.

لم تكن التهديدات الخارجية وحدها هي من تسببت في إثارة حالة الفوضى والإنهاك للدولة الزيانية أو بقية الممالك المغاربية، فقد أشار الفاسي إلى خطر ما وسمه بتعدّيات الأعراب، حيث لم تفتأ الإمارة الزيانية:« تتضرر من تعسفات الأعراب القاطنين بالجزء المجاور للصحراء. وكان ملوك تلمسان دائما مضطرين إلى أن يهدئوهم بأداء إتاوات جسيمة وتقديم الهدايا لهم، لكن لم يستطيعوا قط إرضائهم جميعا، وقلما توجد في البلاد سبل آمنة.[١٥]" . فقد دعت حالة التشظي المجالي في كل من مملكة تلمسان أو في المملكتين المجاورتين، وحالات العصيان التي تثار هنا وهناك بفعل بروز قوى مناوئة سواء أكانت قبلية أو ولائية على غرار الدولة الشابية في الوسط الغربي لإفريقية الحفصية إلى ضرورة تسيير حملات عقابية بغاية الإخضاع وفرض سلطان المخزن.

٣/١-المحلة، السلطة المتجوّلة

تمثل الجباية مصدرًا رئيسًا لخزينة الدولة ولموارد العائلات الحاكمة في مجالات المغارب لتصريف شؤون الحكم ولدفع رواتب الجند وموظفي الإدارة. وتمثل الجباية أيضًا رمز الولاء والخضوع وتحييز المجال territorialisation الذي تمتد فوقه سلطة الحاكم، فتتحول المحلة فرصة لتجديد البيعة للسلطان من لدن القبائل الخاضعة أو لتأديب القبائل المنتفضة والمنافسة للدولة، والمعروفة باسم قبائل السيبة.

وأمام هذه الضرورات فقد اعتادت مدينة تونس منذ العهد الحفصي أو في زمنة عثمنة البلاد التونسية على تجهيز موكب المحلة مرتين في السنة، محلة الشتاء التي تغادر المدينة إثرى انطلاق جني الزيتون والتمور في وطن الساحل وبلاد الجريد، ومحلة الصيف باتجاه الشمال أو وطن «فريقا» لجمع المجابي من الحبوب بعد موسم الحصاد. وكانت المحلة تتألف من أطياف بشرية متنوعة، فتجمع أصناف مختلفة من عسكر السلطان والموظفين والفقهاء والتجار والحرفيين، ويتم تطعيمها بأعداد وافرة من الجند وفرسان القبائل المخزنية والكتّاب والحرس والجوانب والحجاب والخدم. وتنتظم المحلة غير بعيد عن أسوار المدينة ثم تغادر في موكب استعراضي يقودها السلطان الحفصي أو من ينوبه لجلب الخير العميم من دواخل البلاد إلى حاضرة الحكم. فتتنقل المحلة وفق مسارات مضبوطة مسبقا محدثة حيوية وجلبة في الطرق والمسالك، معبّرة عن حضور فعلي ومباشر لسلطة المخزن ولمؤسساته في أعماق المملكة. فتنشر القضايا أمام الفقهاء ليجري العدل بين الناس وتعقد الأسواق وتزدهر المعاملات في أمن واطمئنان، ويكف المارقون عن القانون أيديهم عن السرقات وأعمال الحرابة[١٦].

لقد كانت المحلة متعددة الوظائف والأدوار ومنها الجباية ومراقبة السبل وصرف الرواتب ونشر العملة في عالم تسوده المبادلات العينية، ونصب الأسواق وبسط احتكار الدولة على المواد الأولية المطلوبة في التجارة المتوسطية على غرار الحبوب والجلود والزيت والمنسوجات. وهي فرصة ليتواصل المخزن مع قيادات القبائل الموالية، والتفاوض مع القبائل المناوئة، ولاستعراض أبهة سلطانه وقدراته الردعية[١٧]. ومن نافلة القول إن البلاطات لم تكن تميل في العادة إلى استخدام القوة ضد خصومها في الداخل إلا عند الضرورة، فالمخزن لا يتوانى على إغداق الأموال على رؤوس القوم في البوادي وتقاسم الأعطيات المالية والعينية لأجل كسب ودهم، ومساعدته على النفاذ إلى الأفراد والسيطرة عليهم[١٨]. فبفضل قوة نفوذ الأعيان المادي والمعنوي فهم قادرون على نشر الأمن والاستقرار في مناطق بعيدة عن مركز السلطة، وعلى إخضاع قبائلهم وجعلها ممتثلة لإرادة المخزن[١٩]. على أن ذلك لا يعني الولاء المطلق وغياب حركات عصيان وتمرد إذا ما أخل المخزن بتعهداته الدورية تجاه أعيان القبيلة.

في نهاية هذه العروض حول مسألة الحدود الهشة في مجالات المغارب في نهاية العصر الوسيط يقودنا تحليلنا إلى طرح التساؤل التالي: ترى هل شعر سكان تلك المجالات بتشكّل ما يسمى حاضرًا بالدولة الترابية Etat- territorial بمعنى هل ساد شعور بالانتماء وبواجب الدفاع عن مركزة سياسية ومجال معلّم يسمى بالمفهوم الحديث «الوطن» ؟

رغم اشتراك المجموعات البشرية التي استوطنت دويلات المغارب في العصر الوسيط في عدة مقومات ذاتية ومنها الاشتراك المجالي والعقدي وأحيانا اللغوي (أمازيغي أو عربي) والثقافة الشعبية، والمشترك التاريخي والحضاري، إلا أنه من السابق لأوانه الحديث عن بروز "شعور وطني" لساكنة تلك المجالات واستعدادها للوقوف بصفة طوعية ضد القوى الخارجية. فلقد ذكرت المصادر كيف تخلّت القبائل البدوية خلال حملة أبي الحسن المريني سنة ١٣٤٨ عن مؤازرة السلطان الحفصي والانضمام إلى صفوف السلطان المريني. فما إن وصل إلى مدينة وهران تلقى السلطان المريني وفود المدن الطرفية في مجال إفريقية مثل توزر ونفطة وقفصة وقابس. ثم تلقى في مدينة بجاية ممثلين عن القبائل الكبرى معلنة ولاءها له[٢٠].

يمكن تفسير انصياع بعض المدن التونسية والمجموعات القبلية إلى الجيش المريني بعدة مبررات أهمها: أن الحدود الجغرافية للمركزات السياسية التي كانت خاضعة لها رخوة غير مستقرة لا على أرض الواقع ولا في الأذهان، ولم تدعمها اتفاقيات مكتوبة يشعر فيها كل متجاوز لحدودها بالغربة في المناطق التي تليها. فضلا عن ترسّب ولاءات منافسة للولاء إلى السلطة، إذ حافظ ولاء الأفراد للقبيلة على صلابته ليكون أمتن بكثير من بقية الولاءات الأخرى. فضلا عن الطبيعة الظاعنة للقبائل التي يشغلها بلوغ أراضي تحفظ حياة الجماعة أكثر من التمسك بحيز جغرافي محدّد ومضبوط تتفاعل معه وتنشأ معه أواصر شعورية قوية[٢١]. أما المجتمع الحضري فقد كان منشغلا بانتمائه الضيق إلى المدينة ولا يعترف بالرباط الوجداني مع سكان البادية، الذي نعتهم بـ «عرب» (وصم تحقيري نسبة إلى الأعراب). دون أن ننسى أن اسم الدولة أو المركزة السياسية عادة ما كانت تحمل اسم السلالة الحاكمة وليس اسم المجال الذي يحوي ساكنيه، ما يضعف الصلات بين الأفراد أو المجموعات والطبقة الحاكمة. على أن يبدأ تبلور مفهوم الهوية السياسية للمجالات المغاربية على مراحل خلال الحضور العثماني وتقسيمه لمجال الدولة الحفصية في الربع الأخير من القرن السادس عشر إلى ثلاث ولايات ثم الشروع في رسم حدود فاصلة بينها ومتفق عليها بين الجيران بعد إبرام معاهدات واتفاقيات، والتي ستؤول شيئا فشيئا إلى تشكّل ما يعرف اليوم بالهوية السياسية لكل مجال. فهل يحملنا هذا الاستنتاج إلى القبول بتشكّل هويات ثقافية محلية في ذلك الوقت؟ وهل عطلت تلك الحدود الهشة تقاسم العطاءات الثقافية بين أقاليم المغارب؟

ثانيًا: التشابك الثقافي المغاربي والانفتاح على هويات مجال الصحراء وبلاد السودان

تُعَدّ الهويّة الثقافية وفق ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسي إتيان باليبار Balibar Etienne «تحقيق لوجود الفرد والجماعة وإثبات لخصوصيتهم، وذلك بناء على مقومات وقيم متعارف عليها ومتفق عليها داخل حيز جغرافي مترامي ومُعلّم. وتتجلى بصورة معلنة في طريقة الكلام واللهجات وطريقة إعداد الأطعمة وآداب الأكل والجلوس إليه، واللباس والمعمار والأذواق الأدبية والفنية وغيرها من عناصر الثقافة المادية واللامادية. وتستند تمثلات الجماعة في تشكيل عناصر ثقافتها إلى الأعراف والتقاليد والموروث الشعبي، والمعتقدات وقوانين الجماعة وفكرها وطبيعة العلاقات بين مكوناتها وسلوكياتها والمباح والمحرم عندها[٢٢]». فمن خلال هذا التعريف فإن المشاهد الثقافية هي الكفيلة بالتعرّف على هويات الشعوب وانتماءاتها، وإذا ما رمنا تنزيل هذا التعريف على الواقع الثقافي للمغارب في منتصف القرن السادس عشر، ومحاولة فهم خصوصياته الثقافية، فإنه من الجدير النظر في ذلك من خلال الوقوف عند تمثلات مغايرة، بمعنى تتبع سؤال الهوية الثقافية للمغاربة بعيون أخرى منتمية إلى مجالات ثقافية أجنبية.

للبحث في هذا الموضوع ارتأينا الوقوف عند مصدر أدبي صُنّف ضمن نصوص الرحلة، كتب في الربع الأخير من القرن السادس عشر، دوّن فيه صاحبه مشاهداته من خلال تنقلاته في مجالات المغارب والأنباء التي تناهت إلى مسامعه عبر التجار والسفراء والبحارة والمستكشفون الإيبيريين، الذين زاروا ببلدان المغارب أو مروا بها في منتصف القرن. وتكمن أهمية هذا المصدر لا فقط من حيث مزامنته للمواضيع التي نحن بصدد دراساتها وإنما لاختلاف زاوية النظر مقارنة بالمؤلفات المحلية. فصاحب النص هو ضابط إسباني يدعى مارمول كاربخال[٢٣] وفد إلى تونس سنة ١٥٣٥ ضمن حملة شارلكان، ثم نجده بعد ذلك بسنوات أسيرا لدى المخزن السعدي بمراكش قبل أن يتم افتداءه وإرجاعه إلى اسبانيا في منتصف العقد الخامس تقريبا. لقد سار مارمول على خطى الحسن الوزان الفاسي وطاف في أرجاء ب المغارب لمدة زمنية ناهزت ثمانية سنوات، ودوّن مشاهداته في مؤلفه «أفريقيا» وعمل فيه على رصد الجوانب الثقافية المادية وغير المادية في المجالات المزارة، سيما كبرى حواضر بلاد المغرب. ولأن الحديث عن الهويّة الثقافية المغاربية هو موضوع رحب ومتشعب في آن، إرتأينا أن نركز جهودنا على أحد جوانبه، تمثل في الظاهرة العمرانية في مدينتي تونس وفاس، للبحث في المشترك الثقافي الذي عمّ المنطقة منذ الأزمنة القديمة.

٢/١-عمارة الدور والأسواق في مدينتي فاس وتونس

تُعَدّ فاس وتونس من أبرز الحواضر السلطانية داخل الفضاء المغاربي وقد تمكنتا خلال تاريخهما الطويل من الإشعاع على مجالات جغرافية واسعة وتنشيطها، وأن تكونا مقرّات اتخاذ القرار في شأن المجالات الخاضعة لهما، واستقطاب خيراتها. حظيت المدينتان لحظة تأسيسهما بموقع استراتيجي، إذ تموضعت مدينة فاس على ملتقى للطرق التجارية بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب. واستقرت مدينة تونس على ضفاف المتوسط في منطقة سهلية عدت من أخصب سهول افريقية، ما جعل المدينتين قبلة لعديد المجموعات البشرية الوافدة وملجأ للجماعات المضطهدة. فقد كانت ساكنة مدينة فاس في القرن السادس عشر خليطًا من أمازيغ الأطلس المتوسط والقيروانيين والأندلسيين واليهود الذين أسهموا في تطوُّرها العمراني والاقتصادي والثقافي. وشكلت مدينة تونس بدورها خاصة في العهد الحفصي منطقة وفود جاليات مغربية وأندلسية ومسيحية ويهودية، فضلا عن الرقيق السودان والعلوج المرتزقة الوافدين من أوروبا ومن البوادي المجاورة والبعيدة[٢٤].

إنّ الحديث عن المشهد العمراني بمدينتي تونس وفاس يحيلنا على علاقة العمارة على اختلاف أشكالها وأنماطها بالوسط الثقافي الذي تنشأ فيه، فهي أكثر النشاطات صلة بتجسيد الواقع الحضاري للشعوب، وتعكس النمط الحياتي والسلوكي من خلال تأثّرها المباشرة بالبيئة السكانية، واستبطانها للمفاهيم والرموز المادية والمعنوية في أي فترة تاريخية[٢٥]. وللعمارة أواصر وثيقة بالمعطيات الجغرافية والوضع الطبوغرافي

والظروف المناخية، إذ يلجأ الناس إلى استخدام خامات ومواد بناء أصلية من الأوساط القريبة والمجاورة لهم. وتحدّد نوعية البناء والتصاميم وفق إملاءات أو خيارات تطرحها المعطيات الثقافية والاجتماعية والبيئية[٢٦]. ونظرا لكثافة المادة المعرفية في مؤلف «إفريقيا» حول العمارة في المدينتين، فإننا سنكتفي عند حدّ عرض الدور والأسواق والجوامع الكبرى والمدارس الملحقة بها.

الدور: بخلاف دور سكان الجبال والبوادي التي حافظت على أشكال عمارة بدائية متصفة ببساطة التصميم والمواد المستخدمة في البناء والتسقيف والتبليط، فيكتفي أصحابها باتخاذ أغصان الشجر أو قوالب من طين والحجارة غير المنجدة بغاية الاستضلال والكِن على حدّ تعبير ابن خلدون[٢٧]، فإن دور مدينتي فاس وتونس - من خلال ما أورده مارمول - قد اتصفت بأبهة عظيمة إذ تجاوز أصحابها الضروري ليبلغوا الكمالي بطلب الزينة والزخرفة، بعد أن استوعب النمط المعماري المغاربي مؤثرات معمارية وفنية وافدة على غرار المؤثرات الأندلسية فضلا عن المؤثرات المشرقية والمتوسطية. فلم يخرج تصميم المنزل التونسي على غرار المنزل الفاسي على ذات التصميم المعتمد في المنازل الإغريقية والرومانية ومنازل المشرق، حيث تكون الغرف مكشوفة على ساحة كبيرة للتزود بالماء والهواء للغرف الموزعة على جوانبها الأربعة التي تفتقد في الغالب لنوافذ مكشوفة على الشارع[٢٨].

بنيت دور فاس «بالآجر أو الطوب الملصق بالجير أو الإسمنت، وهي جميلة من الداخل أكثر منها في الخارج، لأن فيها غرفا جميلة مبيضة ومزلجة بمربعات صغيرة مرصوصة شديدة الصفاء. وتوجد عادة في حجر الدور البهية خزانات داخل الجدران وأقواس من جبس شديدة البياض مزخرف بصور أرقام وأوراق شجر ملونة بشتى الألوان. الدور مغطاة بسقوف من طين مخلوط بالجير والرمل والإسمنت، ولها أفنية محاطة بممرات وأروقة فيها خزانات مصنوعة من خشب طيب الرائحة. كما توجد في الدور أحواض كبيرة من الآجر مبلطة مرصعة، وحمامات أو برك من المرمر[٢٩].» وتشابه دور تونس دور نظيرتها فاس من حيث المواد المستخدمة في البناء فكانت تبنى «بالحجارة أو الآجر والجير وهي في غاية المواتاة مع ظروف هذا البلد إذ أنها ذات سطوح متدرجة بحيث تمكن من تصريف مياه الأمطار إلى الخزانات، أما السقوف فهي من الجبس المزخرف بالذهب وبالعديد من الألوان، إذ لا توجد في هذه الجهات الأخشاب الكافية لصنع ألواح السقوف. أما أرضية الغرف فهي معمولة من مربعات صغيرة من الإسمنت أو تبليط مرصع. وليس في الدور على العادة غير طابق واحد، وأبهاؤها باردة نظيفة لأن الرجال يقضون فيها معظم أوقاتهم وهم يتحدثون ويجرون معاملاتهم، وبذلك يتجنبون إدخال أصدقائهم ومستخدميهم إلى داخل الدار حيث توجد نساؤهم[٣٠].

الأسواق: يكتسي الحديث عن أسواق المدن وخاصة منها العتيقة أهمية معتبرة في مؤلفات الرحلة وكتّاب التاريخ عموماً لما تقوم به تلك المرافق سواء أكانت المغطاة أم المفتوحة، من أدوار محورية في حياة الناس في توفير حاجاتهم اليوميّة والكسب الذي يعود على متعاطي النشاط التجاري. كما تعكس الأسواق في آن المستوى الإنتاجي والتطوّر التقني لسكان المدينة وفحوصها.

فعند الوقوف عند تاريخ أسواق مدينة تونس، فإنه يجدر التذكير بجهود أبي زكريا الحفصي (١٢٠٣ – ١٢٤٩م) في توسيع أسواق المدينة وتشييد عدة قيصريات (أسواق مغطاة). ثم بلغت المدينة في عهد أبي يحي أبي بكر (ت ١٣٤٦م) مرحلة هامة من الاتساع، إذ أحصى ابن الشماع أكثر من ٧٠٠ حانوت للعطارة، وما يزيد على ١٢٠ طاحونة تقوم بطحن ٤٠٠٠ قفيز من القمح كل يوم[٣١]. خُصّص لكل سوق مجال وانتظمت وفق تراتبية مخصوصة، انطلاقا من المركز أي الجامع الكبير في اتجاه أبواب المدينة، حيث تنتصب الرحبات التي تحتضن المعاملات المختلفة بين أهل البادية والحضر[٣٢]. ولقد استرعى اهتمام الكاتب نشاط أسواق مدينة تونس وحركيتها التي تمتد على كامل ساعات اليوم لتصل إلى ما بعد منتصف الليل، خاصة بسوق العطارين بسبب ارتياد النسوة الحمامات ليلا[٣٣]. كما نوّه مارمول كاربخال بوفرة دكاكين الشواشين والنسّاجين الذين انتصبوا داخل حيز خاص بهم داخل أسواق المدينة، غير بعيد عن جامع الزيتونة حيث حظيت منتوجاتهم بشهرة واعتبار عند مسلمي إفريقيا جمعاء[٣٤].

ويحيلنا اقتضاب حديث مارمول في وصف أسواق مدينة تونس إلى ضرورة النظر فيما أورده مواطنه الفاسي في مؤلفه «وصف إفريقيا»، فكانت أسواق المدينة تضم "عددًا كبيرًا من تجار القماش الذين يعتبرون أغنى سكان المدينة، كمّا تضم غيرهم من التجار والصنّاع، كالعطارين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلاّة بالسكر، وتجار العطور والحرير، والخيّاطين والسراجين والفرّائين والفاكهانيين واللّبانين والخبّازين والقصابين الذين يذبحون الخرفان أكثر من غيرها لا سيما في الربيع والصيف، إلى غير ذلك من الحرف التي تمارس في هذه السوق[٣٥].

وتركزت في الطرف الغربي للمغارب المبادلات والمعاملات التجارية في أسواق» فاس البالي»، بالقرب من «جامع القرويين» في «مكان مسور يدعى القيصرية، حيث [توجد] دكاكين التجار وجميع ثروات فاس. لها اثنا عشر بابًا كبيرًا، بسلاسل غليظة من الحديد تستعمل كحواجز لمنع دخول المرء إليها راكبا. وتضم خمسة عشر زقاقا للدكاكين. أهمها زقاق الإسكافيين الذين يصنعون أحذية مطرزة بالذهب والحرير، وبعدهما زقاقا القطانين الذين يصنعون أشرطة وشُرّابات تعلق بركابات وعلى صدور الخيل مع عدة السروج من نفس المادة. وهناك أيضًا أزيد من مائة دكان للتجار الذين يبيعون جميع أنواع النسيج من الحرير وأخرى بجوارها تباع فيها النّطُق من الحرير والصوف للنساء، منسوجة على وشاحات غليظة من الخيط بأهداب طويلة في أطرافها... تتمنطق بها جميع النساء العربيات. كما أنه توجد في نفس المكان عدة دكاكين، تباع فيها أقمشة رقيقة من الصوف، وربطات من الحرير الخام، جلّ هؤلاء التجار من مسلمي الأندلس وبلنسية»[٣٦].

ففي هذه السوق الكبيرة يجد الفاسيون جميع مستلزماتهم من قماش وحلي وعطورات وأبازيز وفواكه وغلال ومصنوعات جلدية والكتب والنعال والألبسة والأعشاب، ودكاكين الفواكه وباقات الزهر ودكاكين جميع أنواع المشروبات. ودكاكين الشماعين وبائعي اللبن والحليب ومشتقاته ودكاكين السراجين والحصريين ودكاكين بائعي الخضر والشوائين وبائعي الزيوت والسمن والعسل والجبن والزيتون والقصابين والتوابل والحدادين وكل مستلزمات الفرسان والمواشي. وتفرقت أسواق أخرى مختلفة الاختصاصات في أرجاء المدينة، فعلى مقربة من الأبواب الرئيسية (باب الجيسة، وباب الفتوح، وباب المحروق) انتصبت أسواق الحبوب، لتجنب شحن تلك المواد الثقيلة عبر الشوارع الضيقة.

ولأن أسواق مدينة فاس كانت مقصد العديدين من داخل المدينة وخارجها، ما استوجب تشييد عدد كبير من الفنادق قدّر عددها الضابط الإسباني «مائتي فندق، كبيرة حسنة البناء، كان يرتادها التجار القادمين من أصقاع مختلفة للإقامة أو لتخزين سلعهم[٣٧]». بقي أن نشير إلى تمدّد الصلات التجارية بين مدينتي تونس وفاس منذ القدم الذي لم يكن فقط مع المجموعات السكانية المجاورة لهما، بل مع المجالات البعيدة في الصحراء وما وراءها، ومع المدن المتوسطية عبر مسالك برية وبحرية. غير أن تلك المبادلات تقلصت بسبب تمركز الحضور الإيبيري على السواحل المغاربية، وبفعل اتجاه مركز ثقل التجارة الدولية نحو الأطلسي، والتراجع النسبي لتجارة القوافل. واللافت أن مارمول كاربخال واصل في الحديث عن ازدهار النشاط التجاري للمدينتين ما يوحي إلينا بأن معطياته لم تكن متزامنة لأوضاع المغارب لحظة وجوده أو زمن تدوينه لمؤلفه.

٢/٢-عمارة جامع الزيتونة والقرويين والمدارس الملحقة بهما

عدت فاس منذ تأسيسها العاصمة العلميَّة والروحيَّة للجناح الغربي لبلاد المغرب، وازدانت عبر التاريخٍ بعديد الجوامع الكبرى، إذ أحصى مارمول كاربخال وجود «حوالي خمسين جامعًا كبيرًا، في كل واحد منها سقاية من الماء الجاري، مع أحواض كبيرة من المرمر، وعدد من السواري لدعم القبة، فضلا عن ستمائة من مسجد آخر ليس بناؤها جيدًا كثيرًا. والسقوف كلها مغطاة بخشب الأرز المزخرف بعدة نحوت ونقوش، ولها صوامع عالية، مثل أبراج الأجراس، يصعد إليها المؤذن الذي هو بمثابة خادم الكنيسة لينادي إلى الصلاة[٣٨]». وضمن هذه الشبكة الكثيفة من الجوامع والمساجد يبرز «جامع القرويين» الشهير، كأبهى الجوامع وأعظمها في بلاد المغرب كلها وفق شهادة الضابط الإسباني.

يقع الجامع وسط المدينة، «في مكان منبسط سوي، ودائرته نحو نصف فرسخ، له ستة أبواب رئيسية[٣٩] متصلة بستة من الأزقة المهمة. وكل الأبواب مغشاة بقطع صغيرة من نحاس، تشكل شتى الأحرف والتشبيكات بشكل لطيف جدا، مع أقفال ضخمة مصنوعة بنفس الطراز، مثلما يشاهد في الكنيسة العظمى بإشبيليا[٤٠]». ونظرا لتشابك المعرفي بالديني، فقد ألحقت بالجامع مدرسة عظيمة معروفة باسم «مدرسة القرويين" يُدرّس فيها العلماء والفقهاء علوما وفنونا متنوعة ويشرف على تسييرهما والاهتمام بمواردهما المالية مُشرف يعيّنه حاكم المدينة، ولكن بسبب الصعوبات المادية التي لحقت بفاس في القرن السادس عشر وضع الحكّام أيديهم على مقدرات المؤسستين[٤١]. كما شدّت «المدرسة البوعنانية» بفخامتها الكاتب التي عدها من أجمل بنايات مدينة فاس، من حيث أفنيتها الكبيرة وأروقتها وتعدّد غرفها الملبسة بالطلاء الجيد، أرضيتها المزلجة. ولاستقبالها لعديد الطلبة من داخل فاس وخارجها والذين يتكفل المخزن بالإنفاق عليهم جميعا[٤٢].

ويضاهي «جامع القرويين» من حيث المكانة والرفعة جامع الزيتونة بمدينة تونس، فهو «مسجد واسع، له موارد وفيرة، وله صومعة عالية توجد في أعلاها ثلاث رمانات من النحاس المموه بالذهب شبيهة بالتي في مراكش[٤٣].» وتنتشر بأحياء المدينة عدد آخر من المساجد، والمدارس والتي وقع هدم البعض منها بسبب ما كان يعيشه المخزن الحفصي من صعوبات مالية خانقة بعد أن فقد السيطرة على موارده المتأتية من الخارج على غرار عائدات القرصنة البحرية والتجارة الخارجية نتيجة اضطراب أحوال المتوسط واشتداد الصراع العثماني الإسباني[٤٤]. ومع ذلك فقد ظلت بعض المدارس الأخرى تؤدي وظيفتها التربوية والتعليمية وينفق عليها من الهبات والصدقات، وذلك لرسوخ قناعة عند أعيان المدينة بضرورة استمرار المدارس في القيام بأدوارها في تعليم الناس المعارف الدينية والدنيوية، ولتضطلع بوظيفة رئيسية في تكوين أعوان الدولة ونخبة المخزن الجديد داخل الفضاء الحضري. وتعرض الكاتب في مواضع أخرى من مؤلفه وبدرجات متفاوتة للحديث عن عدد آخر من المنشآت العمرانية الكبرى التي تقوم بأدوار مركزية في حياة الناس على غرار الحمامات والبيمارستانات والقلاع. وتعمّد الحديث أيضًا عن أسوار المدينتين، فبدت له فاس وتونس غير حصينتين بسبب قصر أسوارهما وعدم قدرتها على الصمود أمام ضربات المدافع[٤٥].

ما يمكن استنتاجه في نهاية هذا العرض حول عمارة مدينتي تونس وفاس في مدونة «إفريقيا»، أنّ الكاتب لم يخف إعجابه الكبير بالزخم العمراني في المدينتين الذي عكس حيويتهما البشرية والاقتصادية وعراقتهما التاريخية، مشدّدًا على التشابه العمراني بين المدينتين في الهندسة والمواد المستعملة والزينة والوظائف، فضلا عن دورهما المحوري في احتضان المركزات السياسية في طرفي مجال المغارب. كما عرّج الكاتب على أوجه الشبه في المشهد العمراني لحاضرتي تونس وفاس مع نظيره الأندلسي الذي كان شائعا في اشبيلية وطليطلة ومرسية وقرطبة وغرناطة. وأحال مارمول على سرعة اندماج الموريسكيين في الحياة الاجتماعية المحلية، مثمّنا لأدوارهم الريادية في إثراء العمارة المغاربية والأنشطة الاقتصادية، وخاصة منها الحضرية كالحرف والتجارة. متهما العرب والمسلمين لحظة وصولهم إلى شمال إفريقيا بتدمير المعالم العمرانية وتسببهم في نشر البداوة، وهدم الحواضر.[٤٦]

ومهما يكن من أمر فقد نأى مارمول بنفسه عند حديثه عن ملامح الحياة العمرانية في مدينتي تونس وفاس عن ذكر مجالات المغايرة العمرانية والاقتصادية بين العالمين الإيبيري والمغاربي، مُفضلاً استحضار أوجه التشابه والتماهي بين المدينتين المغاربيتين، وهو أمر غير مستعجب حيث وضع الكاتب المدنيتين في نفس الحيز المجالي سماه كعادة الأوروبيين ببلاد البربر، كإقليم جغرافي وثقافي متباين عن بقية الأقاليم الإفريقية الأخرى.

٢/٣-انفتاح الشخصية الثقافية المغاربية على الثقافة الصحراوية وبلاد السودان

يتفق الدارسون للمسألة الثقافة حول بعدها الديناميكي والحركي، فهي في الأعم نشيطة تطمح للتمدّد والانتشار والتشابك مع الثقافات المجاورة، وحتى

البعيدة توازيا مع حركة الجماعات والأفراد. ولكن يختلف نسق ذلك الحراك من ثقافة إلى أخرى، بعلاقة بنوعية التضاريس الجغرافية وطبيعة المسالك والجادات، وبمدى استعداد الأفراد للقبول بالوافد(٤٧). يقودنا هذا الاستنتاج إلى النظر في قدرة الثقافات المغاربية على تقبّل مؤثرات الثقافات المغايرة وخاصة منها ثقافة شعوب إفريقيا ما وراء الصحراء، سيما وأن الحسن الوزان الفاسي قد عزل مجالات المغارب جغرافيا وثقافيا عن بقية أجزاء إفريقيا، واضعا الصحراء (والتي سمّاها ليبيا) كحد فاصل بين بلاد المغرب وبقية إفريقيا. فهل ستكون الصحراء عقبة أمام التثاقف المغاربي – الإفريقي أم تكون شاهدة على حركية ضاجة بين المجالين؟

يشمل التثاقف أو تقاسم العطاءات الثقافية بين شعوب المغارب وسكان بلاد السودان عدة مجالات يتعذر علينا في هذا النص حصرها والتوقف عند جميعها، لذا إرتأينا النظر في أحد مظاهرها والمتمثل في مستويات تأثير الموسيقى الإفريقية الوافدة مع جماعة قناوة وتسللها إلى التعبيرات الموسيقية الروحية للطريقة العيساوية، كطائفة صوفية محلية تنتمي جغرافيا إلى المغرب الأقصى ثم حققت انتشارا واسعا في بقية المغارب (٤٨). أمّا في خصوص طائفة قناوة، فهي مجموعات بشرية من السود حضرت إلى شمال إفريقيا منذ عهود قديمة(٤٩)، وتدّعمت بصفة جليّة في العهد العلوي، عندما قام اسماعيل الذهبي (١٦٦٦ م – ١٧٢٧م) بانتداب أعداد كبيرة منهم ضمن الجيش المغربي، مشكلين وحدات خاصة بهم سميت ب"عبيد البخاري".

أسهم الحضور الكثيف للسود في إثراء المشهد الثقافي المغاربي، وبلغ مداه البعد الروحي، وبروز موسيقات محلية حاملة لجينات ثقافية لإفريقيا السوداء، متخذة لمسميات مختلفة ومنها: قناوة بالمغرب الأقصى والديوان بالجزائر والسطنبالي بالبلاد التونسية. وكانت جميع هذه الطوائف تشترك في فرادة اللحن والكلمات والنسق، والذي كان مغايرا لما ألفه المغاربة من طبوع موسيقية وألحان وكلمات. فيستحضرنا حينئذ انشغالنا بأوجه التمازج الثقافي بين الطائفتين جملة من الأسئلة الباحثة عن هوية قناوة وعيساوة، وسياقات بروزهما، ومرجعياتهما الفكرية والروحية، وأثر التأثير الإفريقي في التصوف المغاربي.

تنتسب طريقة عيساوة إلى الشيخ محمد بن عيسى (ت ١٥٢٦ م) دفين مكناس، والذي احتفظت له الذاكرة الشعبية بصورة فيها كثير من التبجيل، إلى حدّ وسمه بـ «الشيخ الكامل»، لما كان يربي عليه مريديه على العناية الخاصة بالذكر وتلاوة القرآن، وسرد المدائح والصلوات على النبي. ولقد اتبعت عيساوة في مسارها الصوفي خطى سابقتها ومنسّلتها الطريقة الجزولية، التي استندت من ناحيتها إلى الإرث الصوفي الشاذلي المختزل لأبرز التوجّهات والنظريات الصوفية الرائجة منذ أعقاب القرن العاشر ميلادي. وهي توجهات أسهمت بدرجة كبيرة وفعّالة في تدوين وتوضيح وإثراء أفكار متصوفة التأسيس، عاملة تبعا لذلك على إدماج تلك الأفكار في حظيرة الشريعة، محققة بذلك مصالحة حقيقية بين علمي «الباطن» و«الظاهر» أي بين التصوف والفقه(٥٠). وتلازمت أولى الممارسات العيساوية ذات الصبغة الشفوية والصوتية مع العديد من الأعمال الطقسية التأسيسية والأنشطة الطرقية المعتمدة على أدبيات خاصة وهي كتاب «دلائل الخيرات»(٥١) وحزب «سبحان الدايم»(٥٢).

ومن الثابت لدينا، أن السياق الروحي المغربي في القرن الخامس عشر قد اتخذ مسارا مغايرا لما أقره متصوفة التأسيس، حيث وجّه عنايته نحو الجوانب الشكلية من ممارسات صوتية وشفوية على حساب المضامين والمحتوى، رغبة منه في التأثير على الوجدان أكثر منه على العقول. فشهدت بعد ذلك انزياحا طقسيا نحو إعادة صياغة تلك الأذكار والأدعية الزهدية التي وضعها الشيخ بن عيسى، بأسلوب النظم الشعري السائد المعروف بالملحون. مصبغين الأحزاب والأذكار الصوفية بمسحة غنائية، مصحوبة باستخدام الآلات الموسيقية في مصاحبة أغانيهم الصوفية، مقتصرين في الغالب على الآلات الإيقاعية، مع إضافة في حالات نادرة للآلات النغمية(٥٣).

ولقد صارت الطريقة العيساوية كغيرها من الطرق الأخرى نحو مغادرة الزوايا والقيام بعدد من عروضها خارجها، أسوة بما كانت تقدمه جماعة قناوة. إذ كانت مستجيبة للدعوات من قبل بعض العائلات أو أثناء مواسم مخصوصة لزيارة الأماكن العامة، بغاية تطهيرها ونشر البركة فيها، أو لمداواة نفوس قد شعرت بأذى "كائنات خفية"(٥٤). ولقد خصت جماعة عيساوة مريديها بطقس الليلة، كطقس صوفي حركي تتم فيه دعوة كائنات خارقة بغاية تقديم العون للمرضى والمستضامين في تماهي كبير لليلة القناوية، والتي تتكون من ثلاث فقرات مميزة وهي الذكر والملوك والحضرة. ولقد ألينا التوقف عند مرحلة الملوك العيساوي والقناوي باعتبار تشابه الطقسين لدى الطائفتين.

يعود مصطلح «الملوك» كطقس محوري ضمن «الليلة» العيساوية والقناوية إلى اعتقاد إفريقي قديم في الجن وقدراته الخارقة في تملك الآدميين، فيطلق على هذه المخلوقات اسم «الملوك» أي المالكين لشخص ما. ويتمثل ذلك الطقس في حصة مخصصة لنوع من الممارسة الموسيقية المصحوبة برقص طقوسي غايته طرد الجان والأرواح الشريرة، ويساعد على شفاء المرضى الذين يفترض أنهم مملكون من الجن(٥٥). فخلال طقس «الملوك» عند عيساوة يلتقي صفان متقابلان جلوسا ينقرون على الدفوف، يتوسطهم شيخ الحلقة المسمى بدوره ب«المقدم» أو «شيخ الششتارة»، ويقف المريدون أو الدراويش المسمون في أدبيات الطريقة ب«الحضّارة» للرقص(٥٦) والحركة تفاعلا مع معاني الأبيات الشعرية والأزجال الصوفية، وتناغما مع حركة الإيقاع الموسيقي بحثا عن مواجد روحية وحالات انجذاب نفسي تنتشي بموجبها النفوس وتنجُم عنها سعادة روحية قصوى(٥٧). ووفق تنظيم الليلة العيساوية، يختص كل جنيّ بلحن مخصوص ينشده العيساويون على إيقاع مستعار من موسيقى القناوي، فيقوم بعض الموسيقيين بعزف «الصاجات» أو «الشقاشق» والطبل الكبير، بغاية جلب المملوكين الى الرقص لأن الملوك يظهرون من خلالهم. ويعتقد أن جماعة الجن عندما تسمع الموسيقى المحببة لديها، فإنها تجبر الأشخاص المملوكين على القيام بالرقص(٥٨). ومع نهاية «الملوك» تنتقل الليلة العيساوية إلى المرحلة الأخيرة وهي مرحلة «الحضرة» والتي تتمثل في مجموعة من الأعمال والممارسات الموسيقية المتنوعة التي يسعى العيساويون من ورائها الانعتاق من العالم الدنيوي وبلوغ الحضرة الإلهية عن طريق الرقص الجماعي الذي يشترك فيه الحاضرون من الرجال والنساء ومختلف الأعمار(٥٩).

فمن وجهة نظر ثقافية، لم تحل الطبيعة ومعيقاتها المناخية والتضاريسية من حدوث تبادل ثقافي ملموس مثلما ما تم عرضه بين مجالات المغارب والمجالات الصحراوية والإفريقية الواقعة من خلفها، فحركة الشعوب والملوك والجنود والتجار لم تأبه إلى تضاريس المنطقة الوعرة، ولا إلى جفاف الصحراء وقفرها. فقد شهدت المسالك الصحراوية المخترقة لجبال الأطلس والصحراء والرابطة بين مدن المغارب على غرار فاس والقيروان وتلمسان بمدن سجلماسة وتمبكتو وغاو وغدامس، حركية نشيطة للناس وللأفكار. فبفضل تلك الطرق الضاجة بالحركة في الاتجاهين جنوبا وشمالا، انتقلت المعتقدات واللغات والأساطير والخرافات والأحاجي، وأيضًا الفنون القولية والحركية كأشكال تعبيرية صادقة على خلاف ما تورده نصوص مكتوبة حمّالة للأوجه.

لم يكن قبول المغاربة بالمؤثرات الثقافية الإفريقية عفويًا، فقد شكّل حضور السود بالمنطقة في بداية الأمر مصدرا للتوّجس والريبة، وذلك خشية "فساد معتقدهم". وبالنتيجة لم تتمكن جماعة قناوة ممارسة طقوس أجدادها في العلن إلا بعد أن قبلوا بأسلمتها وجعلها موائمة للذائقة الإسلامية المغاربية. لذلك فإنه من غير الممكن أن تنطلق احتفالات "الليلة القناوية" دون تلاوة بعض الآيات القرآنية والتصلية على نبيّ الإسلام وقراءة بعض الأوراد والأناشيد الدينية. وفي المحصلة، لقد آل ذلك القبول السلمي بين الطرفين إلى انصهار حضاري سلس بين الأفارقة والمغاربة أثبت قدرة لافتة في حفظ بقائه إلى اليوم، وليحصل على تأييد جلّ الفاعلين السياسيين والاجتماعيين. ورغم الموجات النقدية التي تظهر بين الحين والآخر تدين ما تعتبره ضربا من الشعوذة والدجل، فإن موسيقى قناوة أو السطنبالي أو الديوان بطقوسها المختلفة ظلت ماضية في مسيرتها

الفريدة، ومحتفظة بأساطيرها القديمة وروائح نشأتها الإفريقية، محققة انتشارًا فاق كل التوقعات داخل المغارب وخارجها توج بشهادة أممية تعتبر فنون قناوة رصيدًا تراثيًا إنسانيًا.

خَاتِمَةٌ

أحالت كلمة "المغرب" في النصوص الأدبية وفي الذهنيات خلال العصر الوسيط على إقليم جغرافي شاسع يتموقع غرب النيل ضمن الدولة الإسلامية. حيث غلب على دلالات هذا المفهوم البعد الجغرافي أكثر من الإحالة على معناه السياسي، رغم ظهور كيانات سياسية مستقلة بالمنطقة عن مركز الخلافة بالشرق منذ القرن الثاني للهجرة. وكانت الحركة بين أطرافه انسيابية، إذ لم تعطل الحدود السياسية تنقلات الأفراد والقبائل والمتصوفة والأفكار والسلع، فكان بمثابة عالم من دون حدود[٦٠] un espace sans frontières وفق توصيف الباحث إبراهيم جدلة. ولكن هذه الانسيابية في الحركة لم تكن تعني غياب حدود من نوع آخر. لقد اتخذت الحدود صيغًا أخرى متعددة، وهي أساسا حدود عرقية: (امازيغي/ عربي / إفريقي / اندلسي) أو مذهبية: (مالكي/خارجي) أو انتماء اجتماعي وجغرافي: (حضري / بدوي). فقد اسهمت هذه الانتماءات للأفراد والمجموعات في تشكيل التحالفات والولاءات خصوصا في أوقات التشكل الجنيني للحدود السياسية بين الممالك المغاربية.

لقد تكونت داخل الفضاء المغاربي وعلى إثر انحلال الدولة الموحدية جملة من المركزات السياسية، كان على رأس كل واحدة منها سلطانا، تخترق سلطته الحدود لتشمل كل المؤمنين، غير معترفة بوجود الكيانات السياسية الأخرى. فنفوذه السلطان يسير على سكان المسورات كما على عناصر القبائل الرحل. ورغم أن مجال النفوذ الفعلي لم يكن دومًا مستقرًا، فإنه كان متطابقًا مع مجال الحدود الجبائية[٦١]. فقد يتوسع في زمن قوة المخزن وقد يتقلص في زمن ضعفه ووهنه.

أخذت تمثلات المغاربة للحدود منذ نهاية القرن الرابع عشر في التطوّر التدريجي تحت تأثير عديد الظروف ومنها تعاظم أدفاق المبادلات والأفكار مع القوى الأوروبية، فكان لزاما على المركزات السياسية المغاربية التأقلم مع المثل الأوروبية للدولة على الأقل في بعدها المجالي. ولقد تدعم هذا المنزع مع الشروع في تبادل السفراء والبعوث على غرار حلول السفير الفلورنسي بتونس منذ سنة ١٤٤٤، والذي مثل بداية الاعتراف الأوروبي بوجود دولة ذات أبعاد جغرافية معلومة. ولقد تساوق ذلك مع ظهور ميل لدى المجموعات القبلية إلى التشبث بالمجالات التي اعتادوا التنقل فيها في اشارة واضحة على تقهقر رابطة الدم لفائدة الانتماء إلى المجال. وتعزز المفهوم الترابي للدولة مع انزياح مفهوم الدولة في الذهنية المغاربية من الإحالة على البعد الزمني كالقول مثلاً بدولة الحفصيين، لتصبح لها معنى مجالي يتمحور حول عاصمة أو حاضرة السلطان يمتد نفوذها على بقية الأطراف[٦٢]. ولقد برز هذا التغيير خاصة في كتابات القرن السادس عشر عندما اضحى مفهوم الدولة له دلالة ترابية أكثر منه زمنية، حيث قسّم الحسن الوزان الفاسي ممالك المغارب إلى أربعة ممالك ترابية عوض السلالات الحاكمة، ما ينبئ بتغيرات مفهوم الحدود والمجال والسلطة في أذهان النخب العالمة في ذلك الزمن.

وضمن هذه المناخات الجيو- سياسية المتجهة نحو الثبات والترسيم على أرض الواقع وفي الأذهان، إلا أن ذلك لم يحد من تبادل العطاءات الثقافية بين مختلف الأقاليم. فوفق شهادة مارمول كاربخال قد مثّل الفضاء المغاربي وحدة ثقافية متجانسة، كان تشابهها باديا في مختلف التعبيرات الثقافية وخاصة منها المسألة العمرانية، حيث شدّد صاحب كتاب "إفريقيا" على مظاهر التشابك الثقافي المغاربي خصوصا بكبرى الحواضر على غرار تونس وفاس من خلال ثبات المؤثرات الثقافية المحلية في صياغة تصاميم المنشآت العمرانية الكبرى، في استجابة مباشرة لحاجيات السكان ولطبيعة المواد الأولية المتوفرة. فقد كانت تونس وفاس مثالا عن مشهد ثقافي نجح في صياغة هويته من خلال التأليف بين المحلي والوافد، مهما كان مصدره.

ورغم تشبث الحسن الوزان الفاسي بفكرة "أفضلية سكان بلاد البربر" على بقية سكان القارة في مستوى

التمدّن، فإن المجتمعات المغاربية لم تجد غضاضة في احتضان التأثيرات الفنية والروحية الوافدة من وراء الصحراء. حيث نجح جماعة قناوة والديوان والسطنبالي مثلما رأينا في نقل جوانب من الفنون والتعبيرات الإفريقية، وحتى تمثلاتهم لوجود عوالم خفية، - مثلما نبّه النص القرآني بدوره إلى ذلك، نحو الفضاءات المغاربية. فنتيجة لذلك التثاقف، وفي سياق انتقال الظاهرة الصوفية المغاربية من حقلها العرفاني والوجداني إلى حقل الممارسة الطقوسية لم تعد تقتصر طقوس متصوفة عيساوة وغيرها من الطرق المغربية الأخرى على حركات محدودة من الرقص، بل اتخذ النسق أكثر حركية على شاكلة الرقص الإفريقي لبلوغ مراحل متقدمة من الانتشاء واستدعاء الكائنات الخفية للتداوي والعلاج من أمراض استعصى حينها فهما أو لتأمين طقوس العبور والحضور إلى الحضرة الإلهية.

الاحالات المرجعية:

(١) إن الاهتمام بمسألة الحدود في تمثلات المسلمين يحيلنا بالضرورة إلى موقع هذا المفهوم في المؤلفات الجغرافية العربية والإسلامية. فبالنسبة إلى أندري ميكاييل فقد مثلت الجغرافية العربية هي البداية الفعلية للجغرافية البشرية في العالم، حيث ابدى الجغرافيون العرب نجابة كبرى في هذا المنهج بعد تأليفهم مؤلفات كثيرة في جنس ما عرف بأدب "المسالك والممالك"، والذي انشغلوا فيه بوصف المدن والأقاليم والطرقات والمسالك والحدود، وقاموا برسم الخرائط وحدود الأقاليم. وقد لاحظ ميكاييل غياب حدود فاصلة في مؤلف "نزهة المشتاق" الإدريسي والذي علله صاحبه بعدم قدرته على ضبطها في نصوصه أو في الخرائط المصاحبة وهو في قصر الملك الصقلي روجر الثاني بالدقة المطلوبة. بعكس المقدسي الذي كان شديد الحرص على ذكر حدود الأقاليم والمسافات الفاصلة بينها مع ذكر للحدود السياسية والجغرافية.

(٢) ابن خلدون، **كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣، ج ٧، ص ٤١٨.

(٣) **إفريقية** عند ياقوت الحموي (توفي سنة١٢٢٩ م) هي" بلاد واسعة ومملكة كبيرة قبلة جزيرة صقلية وينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس"، **معجم البلدان**، دار بيروت للطباعة والنشر- دار صادر، ج ١، ص ٢٨٨.

(٤) بن سليمان (فاطمة)، **الأرض والهوية، نشوء الدولة الترابية في تونس: ١٥٧٤ – ١٨٨١**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ٢٠٠٩، ص٢٤.

(٥) نفسه، ص ٣٢.

(٦) ابن خلدون، **المقدمة**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩، ص ٦٠.

(٧) احتل الإسبان مدينة بجاية عدة مرات، ثم استرجعها باشا الجزائر صالح رايس سنة ١٥٥٥.

(٨) الفاسي (الحسن الوزان)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ط ٢، ج ٢، ص ٣١.

(٩) بن سليمان(فاطمة)، **الأرض والهوية، نشوء الدولة الترابية في تونس: ١٥٧٤ – ١٨٨١**، م س، ص ٣٢

(١٠) الفاسي (الحسن الوزان)، **وصف إفريقيا**، م س، ج ١، ص ٢٥.

(١١) نفسه، ج ٢، ص ٧.

(12) Brahim Jadla, «Le Maghreb de l'expédition mérinide au périple de Léon l'Africain», Cahiers de recherches médiévales et humanistes [En ligne], 21 | 2011, mis en ligne le 10 mai 2014, consulté le 15 décembre 2022. URL : http://journals.openedition.org/crmh/12421 ; DOI : https://doi.org/10.4000/ crm.12421

(١٣) يقول الحسن الوزان الفاسي عن متاعب الزيانيين:" غير انهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس- أي المرينين- الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسب ما جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيّان حينئذ إما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المفازات عند جيرانهم الأعراب، وتعرضوا أحياناً أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس، إلاّ انهم كانوا يسترجعون ملكهم كل مرة. (١٣)"» . الفاسي (الحسن الوزان)، **وصف إفريقيا**، م س، ج ٢، ص ٧.

(١٤) يذكر الفاسي: « ولهذه المملكة ميناءان مشهوران: ميناء وهران، وميناء المرسى الكبير...غير أن هذين الميناءين سقطا في يدي الملك الكاثوليكي فرناندو (١٤)، فكان ذلك خسارة عظمى لمملكة تلمسان، حتى أن الشعب طرد الملك أبا حمو وعوضه بأحد أعمامه...وهو المدعو أبا زيان...لكن ذلك لم يدم طويلا حيث أن (عروج) بربروس التركي طمح إلى الملك فقتل أبا زيان غيلة ونصب نفسه ملكا. ولما طرد الشعب أبا حمو توجه فورا إلى وهران وقطع البحر إلى إسبانيا قاصدا جلالة الإمبراطور شارل كارلوس متضرعا إليه أن ينجده ويعينه على أهل تلمسان والتركي بربروس. فاظهر الإمبراطور الكبير رحمة وشفقة مثلما أظهرها أسلافه، بحيث لبى دعوة الملك وأرسل معه جيشا قويا هائلا استطاع أبو حمو بواسطته أن يرجع إلى مملكته ويقتل بربروس وعددا من أتباعه. وبعد هذه الأحداث أرضى أبو حمو جنود الإسبان، وتمسك رغبة منه في السلم بالعهود التي قطعها على نفسه مع الإمبراطور، مؤديا له سنويا الإتاوة المحددة.» . **وصف إفريقيا**، م س، ط ٢، ج ٢، ص ٩.

(١٥) نفسه ونفس الصفحة.

(١٦) عزيزي (محمد الحبيب)،« محلة الشتاء والصيف، الكراسات التونسية» عدد ١٧٢، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، الثلاثي الأول سنة ١٩٩٦، من الصفحة ١٢ على الصفحة ٤٨.

(١٧) عزيزي (محمد الحبيب)، أطروحة دكتورا، ظاهرة الحكم المتجوّل في بلاد المغرب الحديث: المحلة التونسية أنموذجًا، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بالجزائر، قسم التاريخ، السنة الجامعية ٢٠٠٦/٢٠٠٧ ص ٤

(١٨) بورقية (رحمة)، **الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحوّل في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب**، دار الطليعة بيروت، ١٩٩١، ص٧١.

(١٩) بياض (الطيب)، **المخزن والضريبة والاستعمار**، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١١، ص١٣٨.

(20) Brahim Jadla, « Le Maghreb de l'expédition mérinide au périple de Léon l'Africain », op. Cit.

(٢١) يشير الباحث إبراهيم جدلة إلى اتجاه القبائل الرحل إلى تقليص حركتها داخل مجال معين والتشبث بالأرض بعد حملة أبي الحسن

المريني سنتي ١٣٤٧ –1448 ما ساهم في إعطاء تجانس ديمغرافي داخل الممالك المغاربية.

(22) Balibar Etienne. « Identité culturelle, identité nationale». In: Quaderni, n°22, Hiver 1994. Exclusion-Intégration : la communication interculturelle. pp. 53-65.
DOI : https://doi.org/10.3406/quad.1994.1062
www.persee.fr/doc/quad_0987-1381_1994_num_22_1_1062

(٢٣) مارمول كاربخال (١٥٢٠ - ١٦٠٠) كاتب وضابط إسباني شارك في عدة حملات عسكرية تحت الراية الملكية الإسبانية، ومنها حملة الإمبراطور شارل الخامس الشهيرة على مدينة تونس سنة ١٥٣٥ ما مكّنه أن يكون شاهد عيان على مستجداتها وأن يخصها بصفحات مطولة عند تعرضه لوصف مدينة تونس. وأسعفه أسره من قبل السعديين ومرافقتهم لهم في حلهم وترحالهم إلى حين افتكاكهم السلطة من أيدي الوطاسيين أن يكون أيضًا الأقدر للحديث عن حواضر المغرب الأقصى ومدنه وبواديه، وأن يقدم لوحة تاريخية متنوعة الأبعاد حول الخصائص الحضارية والطبيعة للمنطقة. وتذكر المصادر أيضا مشاركته في حملة قمع ثورة البوشرات الغرناطية Rébellion de las Alpujarras (١٥٦٨ -١٥٧١). للاستزادة حول شخصية مارمول يمكن العودة إلى:

* Oumelbenine Zhiri, L'Afrique au miroir de l'Europe : Fortunes de Jean Léon l'Africain à la renaissance, Ed. Librairie Droz, Genève. 1991.

(٢٤) حسن (محمد)، **المدينة والبادية**، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية تونس، ١٩٩٩، ج١، ص ١٤٩.

(٢٥) جودي (محمد حسن)، **العمارة العربية الإسلامية**، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٧، ط١، ص٢٧.

(26) Philippe Boudon ,Architecture et architecturologie, Paris ,١٩٧٥ PP (89-90).

(٢٧) عبد الرحمان بن خلدون، **المقدمة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٧، ص ١٣٥.

(٢٨) للاستزادة حول المنزل الفاسي يمكن العودة إلى مؤلف روجيه لوتورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ترجمة نقولا زيادة، مكتبة لبنان. ١٩٦٧، من الصفحة ٩١ وما يليها.

(٢٩) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، ترجمه محمد حجّي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرّباط، ١٩٨٤، ج ٢، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٣٠) نفسه، ج ٣، ص ٢٣.

(٣١) حسن (محمد)، **المدينة والبادية**، م س، ج١، ص ١٦٩.

(٣٢) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م س، ج ٣، ص ٢١.

(٣٣) نفسه ونفس الصفحة.

(٣٤) نفسه ونفس الصفحة.

(٣٥) الفاسي (الحسن الوزان)، **وصف إفريقيا**، م س، ج ٢، ص ٧٥.

(٣٦) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م س، ج ٢، ص ١٤٩.

(٣٧) نفسه، ص ١٥٠.

(٣٨) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م س، ج ٢، ص ١٤٦.

(٣٩) ذكر الحسن الوزان الفاسي أن مجموع أبواب جامع القرويين واحد وثلاثون بابا كلها كبيرة، **وصف إفريقيا**، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٤٠) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م س، ج ٢، ص ١٤٦.

(٤١) نفسه، ص ١٤٧.

(٤٢) نفسه ونفس الصفحة.

(٤٣) نفسه، ج ٣، ص ٢٢.

(٤٤) الشريف (محمد الهادي)، **تاريخ تونس**، دار سراس للنشر، ط ٣، تونس، ١٩٩٣، ص ٦٤.

(٤٥) مارمول كاربخال **إفريقيا**، م س، ج ٣، ص ٢٣.

(٤٦) نفسه، ص ١٧.

(47) Claval (Paul), la géographie culturelle, Armand Colin, Paris, 2003, p94.

(٤٨) «كناوة» أو «قناوة» وفق عديد الدراسات هي كنية مستوحاة من انتساب جغرافي، حيث كان التجّار المغاربة يطلقونها على أهل "جيني" أو "كيني"، وهي مدينة مشهورة تقع جنوب تمبكتو على حوض النيجر. وردت هذه التسمية في عدة مصادر كلاسيكية ومنها ما ذكره الحسن الوزان الفاسي الذي أرجع أصل التسمية إلى:" مملكة يسميها التجار الأفارقة (يقصد المغاربة) «كناوة» والأهليون «جيني»، ويطلق عليها البرتغاليون ومن لهم خبرة بهذه المناطق في أوروبا غينيا. الفاسي (الحسن الوزان)، **وصف أفريقيا**، م س، ج ٢، ص ١٦٢.

(49) Pouchelon(J), Les Gnawa du Maroc: Intercesseurs de la différence, éditions Delatour France.2019. P35.

(٥٠) نفسه ونفس الصفحة.

(٥١) **دلائل الخيرات، أو دلائل الخيرات وشوارق الأنوار فى ذكر الصلاة على النبى المختار** ، كتاب من تأليف محمد بن سليمان الجزولي المتوفى سنة 870 هـ، جمع فيه صيغ فى الصلاة على رسول الإسلام، ويعدّ من أشهر الكتب فى هذا المجال مما جعله محط اهتمام كثير من العلماء قديماً وحديثاً، وخصوصًا الصوفية منهم، فجعلوه جزءاً من أورادهم التي يقرؤونها صباحاً ومساءً.

(٥٢) يتألف هذا الحزب من تشكيلات لغوية متنوعة من الأذكار والأدعية المتفرقة التي وضعها عدد من شيوخ الجزولية، انظر: **ممارسات الإنشاد الصوفي في الطريقة العيساوية**، ص ١٥٢ وما يليها.

(٥٣) بن عمر(هشام)، **ممارسات الإنشاد الصوفي في الطريقة العيساوية**، م س، ٢٩٧

(٥٤) فقد شهد الحسن الوزان الفاسي في جهة فاس دعوة بعض الأعيان إلى أعراسهم أحد الشيوخ البارزين من المتصوفة مع جمع من مريديه. فاذا أتوا الوليمة، بدأوا بتلاوة الأذكار وترتيل الأناشيد. وبعد تناول الطعام، يأخذ المسنون منهم في تمزيق ثيابهم في إشارة الى رقص الحضرة. **وصف أفريقيا**، م س، ص ٢٦٩.

(٥٥) لقد كان الاعتقاد في الجن سائدا ومنتشرا في شمال أفريقيا قبل وصول العرب والمسلمين إليه. فعلى الرغم من كون هذه المعتقدات قد اندمجت مع ما جاء به الإسلام فقد بقيت مع ذلك بعض المؤشرات الدالة على تميّز الاعتقاد في الجن بالشمال الأفريقي عن مثيله في الشرق الإسلامي، كعادة التضحية بالطيور لإرضاء تلك المخلوقات الخارقة والتي تعود أساسًا إلى الديانة القرطاجية. بن عمر(هشام)، **ممارسات الإنشاد الصوفي في الطريقة العيساوية**، م س، ص ٢٦٥.

(٥٦) وجب عدم الخلط بين الرقص والشطح، فالشطح الصوفي هو عبارةٌ عن كلمات تَصْدُر منهم في حالة الغَيْبوبةِ حيث لا يَشْعُرون حينئذٍ بغيرِ الحَقِّ كقول بعضهم :أنا الحَقُّ وليس في الجُبَّة إلاّ الله ونحو ذلك.

(٥٧) الكحلاوي (محمد)، «مدخل أنثروبولوجي إلى فنون السماع الصوفي بالغرب الإسلامي»، **مجلة التقاليد والفنون**، المعهد الوطني للتراث، العدد ١٣، سنة ٢٠٠١.ص ٦٧.

(٥٨) بن عمر (هشام)، **ممارسات الإنشاد الصوفي في الطريقة العيساوية**، م س، ص ٢٦٧.

(٥٩) نفسه، ص ٢٢١.

(60) Brahim Jadla, «Le Maghreb de l'expédition mérinide au périple de Léon l'Africain». op.cit.

(61) Ibid.

(62) Ibid.